

بنية الحجاج في معلقة الحارث بن حلزة مقاربة تحليلية في ضوء البلاغة الجديدة

عبد الله بن سليمان بن محمد السعيد

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية
قدم للنشر في 1441/2/20 هـ، وقبل للنشر في 1441/5/28 هـ)

ملخص البحث: يحاول هذا البحث أن يقدم دراسة تحليلية تتناول بنية الحجاج في معلقة الحارث بن حلزة، وقد تركزت الدراسة على محورين أساسيين، وهما: أولاً- محور نظري، يقدم نبذة تتناول معطيات البلاغة الجديدة في قراءة النصوص، وبخاصة ما قدمه رواد مدرسة البلاغة الجديدة بيرلمان وتيتيكا. ثانياً- محور إجرائي، يحاول فحص هذه المعلقة بغية الكشف عن بنية الحجاج وتقنياته التي استعملها الحارث في هذا المقام ومدى قدرته على استمالة الرأي المقابل، وتحقيق التأثير المراد. **الكلمات المفتاحية:** الحارث بن حلزة، الحجاج، البلاغة الجديدة، المعلقات، الشعر الجاهلي.

Argumentation Structure in the Poem (Muallaqah) by Alharith Ibn Hillizah Analytical Approaches in Light of the New Rhetoric

Abdullah Bin Suleiman Bin Mohammed Al-Saeed

Associate Professor of Ancient Literature, Faculty of Arts, King Saud University, Saudi Arabia
(Received:20/2/1441H, Accepted for publication 28/5/1441H)

Abstract: This paper attempts to present an analytical study for the argumentation structure in the poem by Alharith Ibn Hillizah. The study focuses on two main aspects, namely:

-First, a theoretical aspect which offers an overview on the new rhetoric in terms of reading texts, especially the works by the field figures, namely Perelman and Tyteca.

-Second, an applied aspect which examines this poem with the aim of investigating the structure and style of argumentation employed by Alharith in order to manipulate the other party's view and reach the desired influence on them.

Keywords: Alharith Ibn Hillizah; Argumentation; New Rhetoric; Muallaqah; Pre-Islamic Poetry.

أولاً: الحجاج في ضوء البلاغة الجديدة: المصطلح وأفاق التنظير

يمكننا القول إن معطيات النقد الحجاجي بدأت مع أولئك النقاد الذي اعتمدوا على الفلسفة في بنائهم التقافي والنقدي، بدءاً من أرسطو الذي عني بالحجاج، وجعله قاسماً مشتركاً بين الخطابة والجدل (صولة، عبد الله، 1998، 49 وما بعدها).

وقد تسرّبت هذه المعطيات إلى التراث العربي في علم الكلام والمنطق، وفي المناظرات التي كانت تدور حول العقائد أو حول صحة الاختيارات الشرعية واللغوية بين المدارس الشرعية واللغوية المختلفة، كما ظهرت في النقد الأدبي، فتناول النقاد الأوائل الحجاج والإقناع والالزام، ومن ذلك أن ابن قتيبة جعل الشعر الحجة الفاطمة عند الخصام (ابن قتيبة الدينوري، 2005م، 200/2)، وأن حازماً القرطاجني ناقش اختصاص الإقناع بالخطابة، والتخييل بالشعر، وتسويغ دخول الإقناع بالشعر، ودخول التخييل في الخطابة (القرطاجني، 1981، 62-71، 363-361)، وتحديث عبد القاهر الجرجاني عن دور بعض التراكم اللغوية في التأثير على الخصم والزامه الحجة (الجرجاني، عبد القاهر، 1989، 119-121).

والحجاج كما تعرضه المعاجم لون من ألوان التدافع الكلامي القائم على البرهنة والاستدلال، ففي لسان العرب "حاججته أحاجه حجاً ومحاجة حتى حججته، أي غلبته بالحجج التي أدليت بها...، والحجة البرهان، وقيل: الحجة ما دافع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج، أي: جدل، والتجاجُ التخاصم" (ابن منظور، حجج).

ويبدو هذا المفهوم متسقاً مع الرؤية التي طرحها شارل بيرلمان وتيتيكا في كتابهما (مصنف في الحجاج- البلاغة الجديدة)، فقد جدد بيرلمان وتيتيكا آراء أرسطو في البلاغة التي تحصر البلاغة في الإقناع من خلال رؤيتهما الخاصة، رغبة في إعادتها إلى طابعها الفلسفي الحقيقي (المودن، حسن، 2016، 17)، فعرضاً نموذجاً بلاغياً يعارض مع بلاغة الصور والمحسنات البيديعية، مهمته "استعراض الأطروحات المتناقضة والمتعارضة ذهنياً، واستجلاء منطلقاتها المنطقية والاستدلالية لمعرفة طابعها الإقناعي، أي اختيار الحجج المقنعة والمناسبة في موقف معين" (حمداوي، جميل، 2014، 30)، فالحجاج - كما يراه هذان المؤلفان - "جملة من الأساليب تضطلع بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما تعرضه أو الزيادة في حجم الاقتناع" (الدريدي، سامية، 2011، 21)⁽¹⁾.

وفي الحق أن الحجاج جزء لا يتجزأ من مكونات الخطاب وألياته، إذ يرتبط بالتواصل بين عناصر الخطاب المختلفة، ويتماس مع نقاط الالتقاء بين المرسل والمرسل إليه، فكل خطاب هو علاقة قائمة على التفاعل الدائب القائم على التأثير وعلى البرهنة والإقناع. والحجاج بهذا المفهوم يبدو متسعاً يشمل الخطاب الأدبي والاجتماعي والسياسي، ولا ينصرف عن الخطاب الشعري القائم على التخييل وعلى الذاتية؛ لأن هذا الخطاب تتحقق فيه شروط التواصل والتفاعل المستمر بين المرسل والمرسل إليه.

(1) استخرج عبد الله صولة من كتابهما السابق منطلقات الحجاج وبنيتيه وصنفها تصنيفاً واضحاً (صولة، عبد الله، 1998، 324-348).

على أن تطبيق هذه المفهومات على الشعر يبدو متأخراً عن النثر، فقد كان النقاد العرب يميزون الخطابة بالإقناع والتخييل بالشعر، مع إيمانهم بإمكانية التداخل بين هاتين الميزتين، ففتحاز الخطابة إلى التخييل، ويتوسل الشعر بالإقناع؛ لأن الغرض في الصناعتين - كما يرى حازم القرطاجني- "اعمال الحيلة في القاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه" (القرطاجني، حازم، 1981، 361)، ثم بدأ الاهتمام بتطبيق هذه المفهومات على الشعر في العصر الحديث بعد انتشار نظرية الحجاج، ولعل من أقدم هذه الدراسات دراسة نشرتها سامية الدريدي عنوانها الحجاج في هاشميات الكميت (الدريدي، سامية، 1996)، ثم عرضت للحجاج في الشعر تنظيراً وتطبيقاً في كتابها الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، وفيه ظهر تطور أدواتها النقدية (الدريدي، سامية، 2008)، ثم أعقبته بكتابتها دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب القديم وطبقت فيه منهجها السابق (الدريدي، سامية، 2009)، ثم درس صالح التويجري أنساق الحجج في كافيريات المتنبي (التويجري، صالح، 1438هـ).

كما ظهرت بعض الدراسات التي تعتمد المدرسة اللغوية اللسانية متزامنة مع كتابي سامية الدريدي وتالية لهما، فخصّ أبو بكر العزاوي الخطاب الشعري بفصل درس فيه قصيدة للشاعر أحمد مطر (العزاوي، أبو بكر، 2007)، ودرست شامة مكلي نصين لجريير والفرزدق في رسالتها للمجستير (مكلي، شامة، 2009)، ثم نشرتها (مكلي، شامة، 2010)، وقد توالى الدراسات الحجاجية بعد ذلك، ومنها دراسة يوسف عليمات لدالية الراعي النميري، وهيثم سرحان لشعر بشار بن برد (عليمات، يوسف، 2013، وسرحان، هيثم، 1435هـ)، وقد تبرز بعض الدراسات بين الاتجاهين مع ميل واضح للاتجاه اللغوي كما في دراسة عبد الرحمن أحمد كرم الدين للامية العرب، وديب العتيبي لكتابات محمد عبدالله دراز (كرم الدين، عبد الرحمن، 1434هـ، والعتيبي، ديب، 2016).

وفي الحق أن حجاجية الشعر تعدّ أمراً نسبياً، فبعض النصوص تظهر أكثر قابلية للحجاج من بعضها الآخر، فيقدر وضوح إرادة التواصل والرغبة في التأثير على الآخرين تكون حجاجية هذ الخطاب أكثر وضوحاً ورسوخاً، ولا شك أن حجاجية النص الشعري تضيف له متعة عقلية إلى جانب متعته الجمالية والفنية.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن اتجاهات الباحثين تباينت في دراسة الحجاج، وأبرز هذه الاتجاهات مدرستان، الأولى منها المدرسة اللغوية وبدأت بإسكندر وديكرو، وقد اعتمدت الجانب اللغوي أو اللساني، فهما يريان الحجاج كامن في اللغة ذاتها؛ ولذا فقد حصرا دراسته في نطاق دراسة اللغة، لا في البحث عما هو واقع خارجها من بني شبه منطقية أو شكلية أو رياضية (صولة، عبد الله، 2007، 33).

ثم جاءت مدرسة الحجاج وتحليل الخطاب على يد (روث أموسي ودومنيك مانغينو وباتريك شارودو...)، وهو نموذج ينطلق من ضرورة تدشين انفتاح متبادل بين هذين المجالين المعرفيين: الحجاج وتحليل الخطاب، ويطرح الحجاج داخل الخطاب بدلاً للحجاج داخل اللسان" (المودن، حسن، 2016، 11).

وأما المدرسة الثانية فمدرسة بيرلمان وتيتيكا، وقد نشأت في ظل الفلسفة، متعارضة مع ديكرات الذي يعتمد البرهنة، فقد انطلق أصحاب هذه المدرسة من أرضية خطابية "تتوفر على قواعد فلسفية عميقة، صيغت ووضعت منذ أقدم العصور لنجاح عملية

أجزائه المكونة له، ويقوم على "أن حكماً ما ينطبق على جزء من أجزائه ينطبق تبعاً لذلك على الكل" (الدريدي، سامية، 2011، 207)، وغايته البرهنة على وجود المجموع، ومن ثم البرهنة على الحضور (صولة، عبد الله، 2011، 45).

ومن الحجج التي تعتمد العلاقات الرياضية حجج التعدية، وهي "خاصية شكلية، تتصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمر من إثبات أن العلاقة الموجودة بين (أ) و (ب) من ناحية، و(ب) و(ج) من ناحية أخرى هي علاقة واحدة إلى إثبات أن العلاقة نفسها موجودة بين (أ) و(ج)" (صولة، عبد الله، 1998، 329).

وأما الحجج المؤسسة على بنية الواقع فتستعمل "الرابط بين أحكام مسلم بها وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها" (المرجع السابق، 1998، 331)، فهي لا تعتمد على المنطق، وإنما تتأسس على التجربة، فالحجج ما عاد افتراضاً وتضميناً، بل أصبح تفسيراً للأحداث والوقائع، وتوضيحاً للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع وأشباهه (الدريدي، سامية، 2011، 214). ويأتي على رأس هذا النوع حجج التابع السببي، فيبني الحجج على تتابع ثابت للأحداث مع الإحالة على رابط سببي يصل بينها (المرجع السابق، 215)، ويتصل به الحجة البرغماتية التي "يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية" (صولة، عبد الله، 1998، 333).

وثاني هذه الحجج حجة الغائية، وهي قائمة على أن قيمة الشيء تتصل بالغاية التي وجد من أجلها (الدريدي، سامية، 2011، 221)، ويتصل بها حجج التبذير والاتجاه والتجاوز، فأما التبذير فيقوم على وجوب الاستمرار في أمر ما حفاظاً على الجهد والوقت (المرجع السابق، الصفحة نفسها)، وأما حجة الاتجاه والتجاوز فتقومان على رفض السير في أمر ما في الأولى وتأييده في الثانية بالنظر في العاقبة ومآلات الأمور (المرجع السابق، 225).

ومن الحجج المؤسسة على بنية الواقع حجج الوجود والتعايش، وتقوم على التظاهر بين العناصر المختلفة، "وهو القانون الدائرة عليه قوة هذه الحجج التواجدية ونجاعتها، إذ إن حلول العناصر بعضها في بعض، يصنع ضرباً من التعلق ونوعاً من التوحد يقوى به الحجج، ويشد من خلاله الاستدلال" (الشبعان، علي، 2010، 290).

وتبرز في حجتين، "حجة الماهية أو الذات، وتتمثل في تفسير حدث أو موقف ما أو التنبؤ به انطلاقاً من الذات التي يعبر عنها أو يجلبها أو يوضحها" (الدريدي، سامية، 2011، 228)، ويتصل بها مبدأ ثبات الشخصية، فتفسر ما يقوم به شخص معين بربطها بصفاته الثابتة في شخصيته (المرجع السابق، 229)، والحجة الثانية هي حجة السلطة، وتتمثل في الاحتجاج على صحة أطروحة ما اعتماداً على إجماع أو رأي عام أو قانون أو كتاب أو اتجاه معترف به من الجمهور، ولعل أهمها الاحتجاج بأعمال الأفراد وأحكامهم (صولة، عبد الله، 1998، 33-35).

وأما الحجج المؤسسة لبنية الواقع فأظهر ما يميزها "كونها حججاً لا تستند إلى الواقع، بل تصنع واقعا جديداً، وذلك من خلال توليد علاقات حادثة بين الأشياء والعناصر والمفاهيم" (الشبعان، علي، 2010، 307). وهما نوعان تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة، والاستدلال بواسطة التمثيل، فمن أبرز مظاهر النوع الأول حجة المثال، وتعتمد على مثال مفرد

الخطابة وحصول التأثير والإقناع" (مدقن، هاجر، 2013، م51)، وهدف دراسة الحجج عند بيرلمان هو "دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز هذا التأييد" (فضل، صلاح، 1992، 67)، مع الإيمان بأن مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية، وأن تقدمه لا يفقر بالضرورة إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة، كما أن نتائجه ليست ملزمة (مدقن، هاجر، 2013، 50)، وبالتالي فقد "أحدث بيرلمان انقلاباً مفهوماً حقيقياً، ومنح الوجود للاستدلالات غير المنطقية، وأحدث توسعاً نوعياً في تصوراتنا للغة والعقل" (المودن، حسن، 2016، 17).

ولعل من أبرز إنجازات هذه المدرسة أنها استطاعت تصنيف الأشكال الحججية بشكل غير مسبوق، فقد صنّف بيرلمان وتيتيكا الأشكال الحججية التي يمكن أن نعدها مواضع أو معاني حججية إلى أشكال حججية اتصالية وأخرى انفصالية، فالاتصالية هي التقنيات التي تقرب بين العناصر المتباينة، وتتضمن الحجج شبه المنطقية والحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع، والحجج التي تستدعي القيم، والحجج التي تستدعي المشترك، وأما الانفصالية فهي التقنيات التي تحدث القطيعة أو تفسد اللحمة في العناصر المتضامنة في إطار فكري واحد، أو تلك التي كانت تشكل كلاً لا يتجزأ (صولة، عبد الله، 1998، 324) (1).

وتستند الحجج شبه المنطقية إلى مبدأ منطقي خالص، ولكنها تحمل في ذاتها ما قد يثير الاعتراض، فيمكن ردها حين تخضع للتحليل، بدعوى أنها ليست منطقية (صولة، عبد الله، 2011، 42، والدريدي، سامية، 2011، 191)، وهذا شأن الحجج، فهو كما يؤكد بيرلمان- يتعارض مع البرهنة، إذ "ينبغي لنا أن نبلغ المحتمل بواسطة الحجج، وأن نقبل بذلك بما أن الحقيقة مستحيلة التحديد في بعض المجالات" (المودن، حسن، 2016، 15).

وأبرز هذه الحجج وأقربها إلى المنطق التناقض وعدم الاتفاق، ويتمثل في قضيتين في نطاق مشكلتين تنفي إحداها الأخرى، أو ملفوظين متعارضين بعد وضعهما على محك الواقع أو الظروف أو المقام (صولة، عبد الله، 1998، 325).

ويأتي التماثل والحد ثاني هذه الحجج، فيقدم المحتج تعريفات تدعي قيامها بالضبط والتحديد، ولكنها تفقر إلى الدقة والوضوح، كأن يقال الإنسان هو الإنسان ونحو ذلك (الدريدي، سامية، 2011، 200-201).

ومن الحجج شبه المنطقية الحجة القائمة على العلاقة التبادلية، وتتمثل في معالجة حالة معينة معالجة حالة أخرى بدعوى أنهما متماثلتان ولو بطريقة غير مباشرة (صولة، عبد الله، 2011، 45)، فهي قائمة على مبدأ العدالة في التعامل مع العناصر المنتمية إلى صنف واحد بكيفية واحدة (الدريدي، سامية، 2011، 201).

وأما الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية فيأتي على رأسها إدماج الجزء في الكل أو الاشتمال، فما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء (صولة، عبد الله، 1998، 329)، وثانيها تقسيم الكل إلى

(1) سيكون جُل اعتمادنا في شأن هذه المدرسة على ما استخرجه عبدالله صولة في هذا المرجع، وفي كتبه الأخرى، وعلى بعض الإضافات المنهجية والتطبيقية التي جاءت بها سامية الدريدي بعد ذلك في كتابها الحجج في الشعر العربي بنيته وأساليبه (الدريدي، سامية، 190 وما بعدها).

وتبعاً لذلك فقد كان على الحارث أن يتمثل مقتضيات الخطاب الحجاجي وعناصره، معتمداً على البرهنة والاستدلال في عرض حججه، ساعياً إلى تخيير ما يناسب المقام التواصل، بغية استمالة عمرو بن هند إلى وجهته، مع زعمه الحياد واتباع العدل، وبعبارة أخرى فإن الحارث يسعى إلى إثبات سلامة موقف بني يشكر، وعدم إخلالهم بالعهد، وعدم تحملهم مسؤولية قتلى بني تغلب، وهو موقف حجاجي مضاد لموقف تغلب، يستدعي استمالة عمرو بن هند إلى وجهته الحجاجية. ومن خلال التأمل في معلقة الحارث فإنه يمكن تقسيمها إلى ثماني لوحات حجاجية، وهي على النحو التالي وفقاً لرواية ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال (ابن الأنباري، 2010، 435-497) (3):

- 1- لوحة البين ومفارقات الفقد.
- 2- لوحة الرحلة
- 3- لوحة العرض المبدئي ومحددات القضية
- 4- لوحة الذات الواثقة والصورة العامة للقضية.
- 5- مقدمة الحجاج والمرافعة.
- 6- لوحة الحجاج التاريخي.
- 7- لوحة الحجاج العقلي.
- 8- لوحة الحجاج التواصل والعاظمي.

قد يظهر التباعد بين هذه المقاطع عند قراءة عنواناتها لأول وهلة، ولكن القراءة المتأنية تحاول أن تكشف انسجام علاقاتها أو عدمها، وأن تنفي عنها تهمة التفكك البنائي أو تثبتتها من خلال البحث عن القضية المحورية التي تتعلق حولها، ومحاولة الكشف عن التقنيات الحجاجية التي استعملها الشاعر، لتؤسس أنساقاً متعادلة بعضها على بعض في علاقاتها وفي تتابعها البنائي.

أولاً - لوحة البين ومفارقات الفقد:

يستهل الشاعر هذه القصيدة بهذه الأبيات التي يشكو فيها من البين والبعد، فيقول:

رُبَّ ثاوٍ يُمَلِّ مَنهُ
الْبَيْنُ (4) لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَكُونُ
أَلْبَيْنُ قَادَتِي دِيَارَهَا الْخَلْصَاءُ
قُ فَتَاقُ، فَعَادَبْتُ،
بَيْنِي، فَالْشَّعْبَتَانِ، فَالْإِبْلَاءُ
يَوْمَ دَلَهَا وَمَا يَزِدُّ الْبِكَاءُ
رَ أَخِيرًا تَلْوِي بِهَا
بَيْنَ بَعْدٍ كَمَا يَلُوخُ
بِخَزَارٍ (5) هَيْهَاتَ مِنْكَ
أَلْبَيْنُ (6) (7)

بدأ الشاعر قصيدته بهذه الأبيات التي يشكو فيها من البين ومفارقة أسماء، ولكن التأمل في هذه الأبيات

(3) اعتمدت رواية ابن الأنباري؛ لأنها أقدم ما وقفت عليه، ولتاساقها المنهجي، كما اعتمدت شرحه للأبيات، فإن نقلت عن شرح غيره أثبت ذلك في الحاشية.

(4) أدننتنا: أعلمتنا، والبين: البعد، والثاوي: المقيم.

(5) تلوي بها: ترفعها، والعلياء: المكان المرتفع، وإنما أراد الحجاز وما يليها من بلاد قيس.

(6) العقيق: مكان بالحجاز، وشخصان: أكمة لها شعبتان.

(7) خزار: جبل بين العقيق وشخصين، والصلاء: النار، والاحترق بها وأن يناله خرها (الزوزني، 1993، 147).

معزول لتعميم حكم ما أو فكرة معينة، وحجة النموذج وهو المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده (الدردي، سامية، 2011، 245).

وأما الاستدلال بالتمثيل فيعني تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد حقيقة أو إثباتها عن طريق تشابه في العلاقات (المرجع السابق، 252).

وأخر الحجج التي تقوم على الاتصال **الحجج التي تستدعي القيم أو المشترك**، فهي إما أن تقوم على رفض فكرة معينة أو الدعوة إلى موقف ما أو سلوك معين استناداً إلى قيمة أو قيم محددة (المرجع السابق، 270)، وإما أن تقوم على "الاستناد إلى ما يشكل موضوع اتفاق بين المتلقين أو يمثل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم" (المرجع السابق، 287).

وأما الحجج القائمة على مبدأ الفصل المفهومي فتقوم على مبدأ الفصل بين الأفضية والتصورات التي كان بينها وصل، قبل أن يجري عليها التحويل، وذلك من خلال الزوج الفلسفي (الظاهر/ الحقيقة)، فهو "بناء ذهني قائم على المقارنة بين الظاهري والحقيقي من الأشياء، وعلى محاكمة الظاهر في ضوء الحقيقة والواقع" (صولة، عبد الله، 1998، 344).

ثانياً: الإجراء

بالنظر إلى المدرستين السابقتين فإن المفهومات التي طرحها بيرلمان تبدو أكثر نجاعة في دراسة معلقة الحارث بن حلزة؛ لأنها اختلفت بموقف حكم واقتضاء، ومرافعة واحتكام، اتجه فيه عمرو بن هند إلى إفساح المجال لحظاية الإقناع والتسوية⁽¹⁾، وموقف الحارث كان قائماً على حمل عمرو بن هند على الاقتناع بحججه، واستعمال ما يستطيعه من مواضع وتقنيات حجاجية مختلفة في الدفاع عن قبيلته موظفاً الأنساق العقلية والمنطقية والرياضية والشكلية، ومفعلاً السياقات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمثل بدورها إطاراً عاماً يحرك المدركات الشعرية للنسق الشعري في هاته المعلقة.

والمعلقة تقوم على وظلعية حجاجية خلافية، فثمة أطروحة مدحوضة تتمثل في تحميل جنابية هؤلاء القتلى، وأطروحة مقابلة لتبناها الشاعر تتجسد في خلو عهد الفرقيين من تحمل هذه الجناية تحديداً، والحكم أو المتلقي الأساسي الذي تتوجه إليه المحاجة وتحتكم بحكمه هو عمرو بن هند، وحكمه نافذ في الفرقيين، ومسؤولية الحارث أن يحسن إقناع عمرو بن هند، وأن يستميله إلى جانبه⁽²⁾.

(1) حول البعد القضائي⁽⁷⁾ في الحجاج انظر: (أعراب، حبيب، 2001، 97-138).

(2) ذكر ابن الأنباري والتبريزي في مقدمة القصيدة أن عمرو بن هند حين تولى جمع بكرات وتغلب، وأصلح بينهما وأخذ من الحيين رهناً، من كل حي مئة غلام، فكان يغزو بهم، فلما كان في بعض مسيره، أصابته سموم، فهلك عامة التغلبيين، وسلم البكريون، فظلمت تغلب ديات أبنائها، وأبت بكر، واحتكموا إلى عمرو بن هند، وفي مقدمة قصيدة عمرو بن كلثوم ذكر أن أناساً من تغلب استسقوا بني بكر فطردوهم للحقد الذي بينهم، فرجعوا فهلك منهم سبعون عطشا، فاجتمعت تغلب لحرب بكر، فلما التقوا كرهوا الحرب، ودعا بعضهم بعضاً إلى الصلح وحكموا عمرو بن هند، فأبى أن يحكم بينهم حتى تسلم بكر سبعين رجلاً، فإن كان الحق لبني تغلب سلمهم إليهم، وإلا ردهم إلى بكر (ابن الأنباري، 2010، 434، والخطيب التبريزي، 1980، 318-320، 368-370).

ثانياً- لوحة الرحلة:

على نحو ما ظهر امتزاج صورة الفقد بصورة الأمل في الحديث عن البين ظهر كذلك في الحديث عن الرحلة، حيث انتقل الحارث إلي الحديث عن الرحلة انتقالاتاً نفسياً، فجعل صورة الرحلة صورة مكملّة للوحة البين والبعث، يقول:

غَيْرَ أَنِّي قَدْ اسْتَعِينْتُ عَلَى الْهَمِّ إِذَا خَفَّ بِالْثَوِيِّ النَّجَاءُ (2)
بِرُفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمَّ رِئَالٍ دَوِيَّةٍ سَقْفَاءُ (3)
انْسَبْتُ نَبَأَهُ وَأَفْرَعَهَا الْقَنَاصُ عَصْرًا وَقَدْ نَنَا
فَنَرِي خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ (4) ع مَنِينًا كَأَنَّهُ إِهْبَاءُ (5)
وَطَرَأَا مِنْ خَلْفِي سَاقَطَاتُ الْوَتِّ بِهَا
أَتَلَّهِيَ بِهَا الْهَوَاجِرُ إِذْ (5) نَ هَمٌّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ (6)
أَلَّهِيَ بِهَا الْهَوَاجِرُ إِذْ (7)

هذه اللوحة تمثل تنمّة للوحة السابقة، فإذا كان الهدف الذي كان يرجوه الشاعر بعيداً والصلاء الذي يرجوه من النار/النور/الهدف مما يعسر الوصول إليه، فإن الشاعر لن يقف عند حدود التمني، وهنا يأتي دور الرحلة، فيركب ظهر السعي للوصول إلى هدفه، فهو لا يركبها لمجرد التسلي وقطع الفلوات، ولكنه يستعين بها في الموقف الصعب وفي البحث عن النجاء، أو كما يعبر الزوزني: "استعين على إمضاء همي وقضاء أمري إذا أسرع المقيم في السير لعظم الخطب وفضاعة الخوف" (الزوزني، 1993، 147).

وهذه المطية التي يركبها عند الاضطرار وشدة الخوف في موقفه من عمرو بن هند وموقف قومه منهم إنما هي مهارته اللغوية وقدرته على إقناع عمرو بن هند بسلامة موقفه وموقف قومه، وبعبارة أخرى قدرته على إتقان مهارة الحجاج التي يرجو أن تصل به إلى هدفه وغايته التي رسمها في المقطع الأول.

ويلبس الحارث ناقته تلك صفات مناسبة تتفق مع قناعته بجودة حجته وسلامته موقفه، فهي ناقه زفوف، كأنها النعام، سريعة الخطى، يستعان بها على الهَمِّ إذا خَفَّ بِالْثَوِيِّ النَّجَاءُ، ويلفت النظر أن الشاعر يصرح هنا بمدى معاناته والحالة التي يمر بها، وهي حالة تسرع بالمقيم طلباً للنجاة، حيث يصبح الركوب/ المحاجة اضطراراً، والإسراع حاجة ملحة ينتقل إليها الشاعر، وهذه الحالة من الهَمِّ والخوف تستدعي التحرك لتضييق الفجوة دون نار هند/النور/الخلاص.

ولا يكتفي الشاعر بهذا التوافق بين حالته الراهنة/موقفه التواصلية وبين ما يذكره في هذه الرحلة، بل يذكر أن هذه الناقة/الظليم/المحاجة أنست نبأً

(2) الثوي: المقيم، والنجاء: الانطلاق والإسراع في السير (انظر: الزوزني، 1993، 147).

(3) الزفوف: الناقة المسرعة الخفيفة، شبيهت بعدو النعام، والهقلة: النعام، والرئال: فراخ النعام، والدوية: المنسوبة إلى الأرض الواسعة البعيدة الأطراف، والسقفاة: النعام في رجلها انحناء.

(4) أنست: أحشت، والنبأ: الصوت لا يعلم مصدره، والقنص: الصياد.

(5) الرجوع والوقع: حركة قوائمها، والمنين: الغبار الدقيق، والإهباء: ما يرى كأنه غبار يتناثر في الشمس.

(6) الطراق: مطارقة تعال الإبل.

(7) الهواجر: منتصف النهار، والبليّة: ناقة الرجل تعقل عند رأسه إذا مات، وتترك حتى تموت.

يفضي إلى التماس صورة مضمرة من صور الحجاج الذي بنيت عليه القصيدة، فالحارث حين أنشأ هذه الأبيات كان محملاً بالمعاني العامة التي بنيت عليها القصيدة، ومن البديهي أن تتسرب هذه المعاني إلى هذه اللوحة الغزلية، وأن تصبغها بألوانها المختلفة، إذ إن كثير من المعاني الشعرية تتسرب من خلال اللاوعي لتمثل حضورها اللافت في المقام التواصلية.

ومن الواضح أن الشاعر افتقد شيئاً يتمثل هنا في الحبيبة، وأنه ظل يراعيه مع بعد ما بينهما، وظل يرجوه ويتمنى لقاءه، ثم هو يراه نوراً يلوح كما يلوح الضياء الذي ينظر إليه ويتأمله من بعيد.

وهذه المشاهد عندما تتجمع بهذه الصورة فإنها تمثل معاني خفية في نفس الشاعر، دالة على شيء يبحث عنه ويتمناه، شيء يمثل نوراً وخلصاً ينظر إليه ويتأمله من بعيد، ولا يصل إليه في حالته الراهنة.

لقد كان الحارث قادراً على أن يبكي الظلل وأن يصف دموعه وبكاءه كما وصفه امرؤ القيس الذي يحتذي مثاله الشعراء (الكندي، امرؤ القيس، دبت، 9)، أو أن تظهر هذه الرحلة صورة من صور الغياب كما ظهرت عند طرفة بن العبد (ابن العبد، طرفة، 2000، 23-24)، أو صورة جمالية مطربة كما هي عند زهير (ابن أبي سلمى، زهير، 1982، 16-22-1).

وإذن فما الذي جعله يعتمد هذه المعاني دون غيرها؟ من الواضح أن اللوحة الغزلية هنا جاءت محمّلة بالمعاني التي تتعمق مشاعر الحارث، فتمت مزج بين موقفه من الحبيبة وموقفه الحجاجي من عمرو بن هند، وبين أمنيته بلقاء الحبيبة وأمنيته بانفراج هذه الأزمة، فأنت ترى صورة العلاقة المتوترة بعمرو بن هند بعد عهد من الصفاء والوفاء التي كررها الحارث مراراً في المعلقة في بين أسماء وبعدها وتوتر علاقتهم بعد عهد من الصفاء والوفاء.

ويلفت النظر أن الحارث بعد أن ذكر انتقاد الحبيبة استأنف الحديث عن النار التي أوقدتها أسماء، وحاجته إلى نورها ودفنها، والمألوف أن يتحدث الشعراء عن بقايا النار بوصفها جزءاً من الذكريات وبقية مما يذكر بالحبيبة وعهدها أو بالشباب وأيامه، ولا شك أن ذلك يحتاج إلى تفسير وبيان.

ولعل أفضل ما يمكن أن يساعدنا على تفسير هذه الأبيات أن ننظر في الموقف الذي قيلت فيه المعلقة، ومن جديد سنجد أن هاتين الصفتين اللتين كان يبحث عنهما الحارث في نار الحبيبة هما الصفتان اللتان كان يبحث عنهما في موقفه من عمرو بن هند، فالنار محمّلة بمملولات الظلام والنور، والاحتراق والدفء، والصلاء والإصطلاء، وهذه الصفات بعينها حاضرة في موقفه من عمرو بن هند، فمجلس الحكم الذي دعيت له القبيلتان يتصف بهذه الصفات كلها، فهو نور بما يبته من أمل بإنصاف الشاعر وقومه ودفء بما يرجوه من الأمان، وهو نار بما يخافه الشاعر عن اصطلاء هؤلاء الفتية السبعين من قومه بنار هذا الحكم، وهذا بعينه هو شأن الموقف الذي لا بد أن ينجلي عن أحد هذين الحكيمين، إما بسلامة هؤلاء السبعين الذي استلمهم عمرو ضماناً عنده، وهو النور والضياء والدفء الذي يرجوه، وإما بتحميل بني يشكر هذه الجناية وقتل هؤلاء السبعين، وهو ما تمثله النار باحتراقها وصلاتها.

(1) في الموازنة بين جانبي الغياب عند طرفة والجانب الجمالي عند زهير انظر: (السعيد، عبد الله، 1438، 309-305، 345-352).

وتميزها (5) ، فثمة حالة ظاهرة قوامها اتهام بني يشكر بدماء قتلى التغلبيين، وهي مظهر تكتفه الجلبة وتعالى الأصوات في محاولة لتعطيل التأمل والتبصر للوصول إلى معرفة الحقيقة والوصول إليها، فهذا -وفق ما يطرحة الشاعر- ظاهر خذاع يروم إدانة بني تغلب، وثمة باطن حقيقي يتبين بالتأمل وبالمقارنة واستبعاد خلط البريء بالمدنّب، ومن مؤشرات هذا الخلط الإشارة المعيارية الحاضرة في تعدد إحداث الجلبة بأصواتهم وأصوات دوابهم في محاولة لتمكين الزائف الخذاع وتعمية الحقيقة وإخفائها.

رابعاً- لوحة الذات الوثيقة والصورة العامة للقبيلة:

وتمضي القصيدة بعد ذلك في رسم صورة أساسية لبني بكر تجعلها عرضة للوشايات التي لا تضرها ولا تؤثر فيها، يقول:

عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ إِذْكَ
قَبْلَ مَا قَدْ وَشَى بِنَا
أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمَرْقِشُ
لَا تُخَلِّنا عَلَى غَرَاتِكَ إِنَّا
فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنَمِيـ
قَبْلَ مَا الْيَوْمَ بَيَّضْتَ
وَكُنَّا الْمُنُونُ تَرْدِي بِنَا أُرْ
مَكْفَهْرًا عَلَى الْحَوَادِثِ لَا

الحارث هنا يمرر حجة أساسية تقوم على التنبؤ بالنتيجة والحدث من خلال الذات التي تعبر عنها وتجليها، فيحاول أن يوجه النتيجة أو الحكم النهائي من خلال رسم صورة ذهنية للقبيلة تجعل من فشل ما أسماه بالوشايات السابقة في النيل من مكانتها لدى الملك حجة على سلامة موقفها، وثباتها على الوفاء بالعهود وعدم نقضها، وأن هذه الأطروحة التي تعرض أمام الملك إنما هي من قبيل الوشاية والتهمة الخالية من الإنصاف، وهذه الحجة التي يستعملها الشاعر هنا هي حجة الماهية أو الذات، وتتمثل في تفسير حدث معين أو توجيه معطياته انطلاقاً من الذات التي يعبر عنها أو يجليها أو يوضحها (الدريدي، سامية، 2011، 228).

ولا يقتصر الأمر على هذه الحجة فالآبيات تتضمن حجة قائمة على علاقة أخرى هي علاقة التبادلية (12) ، وذلك حين تحدث عن وشاية تغلب بهم وأن هذا ليس جديداً عليهم، فطالما وشى الناس بهم، فلم يضرهم، فكأنهم الجبال لا يضرها من يرميها، ولا تؤثر فيها حوادث الدهر.

وهو هنا يماثل بين وضعيتين: وشاية بني تغلب، ووشاية الآخرين بهم، فيقرر الحكم في الحالين مؤكداً أن

(5) حول الفصل المفهومي انظر: (صولة، عبدالله، 1998، 345).

(6) المرقيش: المزين للكلام.

(7) غرائك: إغرائك الملك بنا، قبل ما قد وشى بنا الأعداء: طالما وشوا بنا عند الملوك.

(8) الشنائة: البغض، تنمينا: ترفعنا.

(9) بيضت بأعين الناس: عظم عليها شأنهم فعميت عليهم أبصارهم، والتعيط: الارتفاع والامتناع، والإباء: رفض الضيم.

(10) المنون: المنية والموت، تردى: ترمى، والأرعن: الجبل الأشم، والجون: الأسود.

(11) المكفر: المتراكم بعضه على بعض، ترتوه: تنقصه وتقصّر منه، ومؤيد: داهية شديدة.

(12) حول هذه الحجة انظر: (صولة، عبدالله، 2011، 45).

وأفرعها القناص، فثمة حالة ظاهرة تعني فرع النعام من القناص وإسراعها لذلك، وثمة صورة عميقة يستلها الشاعر من أعماق نفسه تمثل خوفه وفزعه مما يراد يقومه، وما يحيط بهم من مصائب ووشايات، ومحاولات لزعر عتيم عن مكانتهم، وإضعاف قوتهم.

ثالثاً- لوحة العرض المبني ومحددات القضية:

ولمّا كان موضوع الحجاج الذي يتجه إليه الشاعر ملحاً، ولمّا كان يمثل ضرورة تواصلية فقد اتجه إليه الشاعر بشكل مباشر في سبيل عرض قضيته الحجاجية، وذلك قوله:

وَأَتَانَا عَنِ الْأَرَاقِمِ أَنْبَا
إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُو
عَلَيْنَا⁽¹⁾ فِي قِيْلِهِمْ
وَلَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخَلَاءُ⁽²⁾
رَمَوْنَا أَنْ كَلَّ مَنْ ضَرَبَ
أَصْبَحُوا أَصْبَحْتَ لَهُمْ
مَنْ مَنَادٍ وَمَنْ مَجِيبٍ وَمَنْ
هَلْ خَلِيٌّ خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءُ⁽⁴⁾

في هذا المقطع يبدأ الحارث بعرض موقفه الحجاجي المباشر، فيبدأ بعرض القضية، والباعث على الوقوف أمام عمرو بن هند، وأنه كان بسبب اتهام بني تغلب لهم، وتحميلهم دياب قتلاهم.

ومع أن الموقف كان يتجه إلى عرض الموضوع أو القضية ابتداءً فإنه لم يخل من استعمال بعض المبادئ الحجاجية، فقد افتتح حديثه عن موضع المخاصمة، وتحميل بني تغلب بني بكر مسؤولية قتلاهم، مبيّناً أن تحميل بني تغلب بني بكر مسؤولية قتلاهم يتناقض مع العدل، فالحارث هنا يدفع هذه الأطروحة مؤكداً أنها لا تتفق مع العدل؛ لأنها تخلط البريء بالمدنّب من جهة، ولأنها لا تتفق مع الحجج السليمة القائمة على الوضوح وعدم الخلط، وعلى سلامة الحجة من جهة أخرى، ولذا حرص على وصف محاولتهم تعمية ذلك وستره من خلال رفع الصوت، وتخالط الأصوات، مشيراً إلى ضعف حججهم، ومحاولتهم تشتيت السامعين برفع أصواتهم وتخالطها.

ومبدأ التناقض وعدم الاتفاق الذي استعمله الحارث هنا من أهم مبادئ الحجاج، ويقوم على "إماطة اللثام عن التعارض في أطروحات الخصم" (صولة، عبد الله، 2001، 326)، فيدفع أطروحة ما مبيّناً أنها لا تتفق مع أطروحة أخرى.

كما أن هذا الطرح يتصل من جانب آخر بما يسمّى بالفصل المفهومي، إذ يحاول الشاعر هنا أن يحمل المتلقي على تمثّل مظهرين اثنين للشئ الواحد والمقارنة بينهما للوصول إلى معرفة الحقيقة

(1) الأرقام: أحياء من بني تغلب اجتمعوا هم وعجل وحنيفة وذهل بن شيبان من بني بكر على بني يشكر بن بكر.

(2) الإحفاء: الاستقصاء والمبالغة.

(3) العير: الودد، وقيل: لقب لكيب بن وائل، وقيل الحمار نفسه وقيل: جبل بالمدينة، ومعناه أنه م جلونا موالى لكل من ضرب وتدا في الصحراء، أو لكل من قتل كليبا أو أغان على قتله، أو لكل من ساق عيرًا (حمارًا) في الصحراء، أو لكل من ضرب إلى ذلك الجبل.

(4) الرغاء: من أصوات الخيل والإبل.

والقصيدة تنتقل بعد ذلك من الإجمال إلى التفصيل، في محاولة لإثبات هذه الحجج، فتبدأ بإثبات قوة بني بكر حين ضاع الناس وبدؤوا ينتهبون، فلا العزيز يقيم بالبلد السهل، ولا الدليل ينفعه الهرب والنجاء، يقول:

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يَنْتَهَبُ النَّاسُ
سُورًا لِكَلِّ حَيٍّ عَوَاءٍ (5)

إِذ رَفَعْنَا الْجِمَلَ مِنْ سَعَفٍ
رَبِينِ سِيرًا حَتَّى نَهَاها
ثُمَّ مَلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَحَرَمُوا
نَا وَفِينَا بَنَاتٌ مَرُّ إِمَاءٍ (7)

لَا يَقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْلِ
لَا وَلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلُ النَّجَاءَ (8)

لَيْسَ يُنْجِي مُوَاتِلًا مِنْ جِذَارٍ
رَأْسُ طَوْدٍ وَحَرَّةٌ رَجْلَاءُ (9)

فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى
مَلَكَ الْمُنْزَرُ بَيْنَ مَاءِ السَّمَاءِ
وَهُوَ الرَّبِّ وَالشَّهِيدِ عَلَى يَوْمِ
مِ الْخِيَارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بِلَاءٍ (10)

مَلِكًا أَضْلَعُ الْبَرِيَّةَ لَا يُؤِي
جَدُّ فِيهَا لِمَا لِنَيْهِ كِفَاءُ (11)

هذه الأبيات مرتبطة بالحالة الأخيرة التي أشار إليها الحارث بقوله:

أَوْ مَنَعْتُمْ مَا تَسْأَلُونَ فَمَنْ حُدِّثْتُمُوهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَلَاءُ

والشاعر يعتمد أسلوب الاستفهام ابتداءً، وهو الأسلوب المتسق مع الموقف الحجاجي القائم على الإقناع والإلزام، والأسئلة الاستفهامية تستعمل للسيطرة على الأحداث، بل والسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل، لا حسب ما يريده الآخرون" (الشهري، عبد الهادي، 2004، 352)، والتوجيه الذي يريده الحارث هنا تسيير الخطاب نحو أحداث منتقاة يرى أن في تداولها في هذا المقام نصره لموقف قومه وقوة في بيان حجته.

وينتج الحارث في هذا الأسلوب الاستفهامي إلى استعمال حجة التبادلية، فهو هنا يماثل بين حالتين: الأولى حالة الفوضى القائمة على القوة ومنع الحق والاستعلاء ومنع الاحتكام إلى العقل والمنطق الذي قد يلجأ إليه بنو تغلب حين يمتنعون ما يسألون من الاحتكام إلى العدل والمنطق واستقصاء الحقائق وإبرازها وحفظ الحقوق، والحالة الثانية هي حالة بني بكر حين انتهب الناس وسادت الفوضى، فيقرر الحكم نفسه، وهو علو بني بكر، وخوف الناس منهم، وعدم قدرتهم على ظلمهم، بل إنهم أقدر القبائل على أخذ الآخرين بالقوة، والحجة هنا قائمة على تقرير الحكم في الحالتين، وهذه الحجة لا تظهر نجاعتها إلا إذا تناسينا كل ما يفرق بين هاتين الحالتين من تغيرات تاريخية وواقعية، وما قد يكون استجد في شأن البكريين والتغلبيين من عوامل القوة والضعف.

ويبدو التلميح إلى حجة التناقض من جديد في نهاية المقطع، إذ جعل الشاعر المنذر بن ماء السماء شهيداً على بدلهم يوم الحيارين، فأى محاولة لتجريم بني بكر

(5) الغوار: أن يغير بعضهم على بعض، والغواء: الصباح.
(6) سعف البحرين: نخلها، والحساء: جسي البحر وهو ماؤه.
(7) أحرمانا: دخلنا في الأشهر الحرم، ومر: هو أبو تميم الذي تنسب له القبيلة.
(8) النجاء: الهرب.
(9) الموائل: الهارب، والطود: الجبل العظيم، والحررة: الأرض حجارتها وجبالها سود، والرجلاء: الشديدة التي يرتجل الناس فيها لشدها.
(10) يوم الحيارين: يوم غزا فيه المنذر بن ماء السماء أهل الحيارين ومعه بنو يشكر، فألبوا بلاء حسنا.
(11) أضلع البرية: لا أحد يضطلع بما يضطلع به.

وشاية التغلبيين لن تضرهم، كما لم تضرهم وشاية الناس قبل بني تغلب.

وهذه الحجة ترجع إلى معاملة الأطراف المتماثلة معاملة واحدة، لكن هذا التماثل في حقيقته ليس كاملاً، إذ يكفي أن يثير المعترض الآخر شيئاً من الفروق بين هذه الأطراف محاولاً أن يضعف من أثر الحجة، وأن يجعلها أقل نجاعة وتأثيراً، وهو شأن الحجاج، فمسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية لا تمثل ضرورة منطقية كاملة، كما نتائجه ليست ملزمة (مدقن، هاجر، 2013، 50).

خامساً: مقدمة الحجاج والمرافعة:

يوجه الحارث حديثه للخصم محاولاً أن يثبت بطلان دعواه بقوله:

أَيُّمَا خَطَّةٍ أَرَنْتُمْ فَاتُوا هَا إِلَيْنَا تَمْشِي بِهَا الْأَمْلَاءُ (1)
إِنْ نَيْشْتُمْ مَا بَيَّنَّ مِلْحَةَ قَبِّ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ (2)
أَوْ نَقَشْتُمْ فَالْتَقَسْتُمْ تَجَسُّمَهُ النَّاسُ وَفِيهِ الصَّلَاحُ وَالْإِبْرَاءُ (3)
أَوْ سَكَنْتُمْ عَنَّا فَكُنَّا كَمَنْ أَعَى مَضَّ عَيْنًا فِي جَفْنِهَا أَقْدَاءُ (4)
أَوْ مَنَعْتُمْ مَا تَسْأَلُونَ فَمَنْ حُدِّثْتُمُوهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَلَاءُ

من الواضح هنا أن الحارث يقدم مقدمة تؤكد أحقية وقومه بالبراءة، فهي تقوم على رسم صورة أولية تثبت ثقته بحقه وضعف حجة الخصم، فيترك لهم اختيار الخطئة التي يمكن أن يتحاكموا إليها، فيخبرهم بين استجلاء الأحداث السابقة وإقامة الشهود عليها، أو الاستقصاء في جميع ما جرى بين الفريقين، أو السكوت عما مضى مع ما في ذلك من هضم لحقوق بني بكر، أو منع ذلك والاعتماد على شريعة القوة التي تعطي الحق للقوي وتحترمه.

وهذه الأبيات تتضمن ما يسميه بعض النقاد بحجة الماهية والحجة النفعية، فاما حجة الماهية فتقوم على علاقة الذات بصفاتهما (الدريدي، سامية، 216-221)، فالحارث هنا يستدل بالأحداث الماضية على رسم صورة معينة للصراع بين القبيلتين؛ ليؤكد سلامة موقف بني بكر، وبطلان هذه الدعوى، ثم هو يؤكد قوة بني بكر، وانكسار القبائل دون الطمع بظلمهم.

وأما الحجة النفعية فهي التي تؤدي إلى تقويم قرار أو حدث معين بالنظر إلى نتائجه الإيجابية أو السلبية (المرجع نفسه، 228-232)، فالحارث يشير إلى النتائج السلبية التي سيواجهها بنو تغلب في حال إصرارهم على هذا الادعاء، إذ إنه سيؤدي إلى نبش الأحداث الماضية التي سيبين من خلالها معايير بني تغلب وهزائمهم التي طالما منوا بها، كما سيثير أحداثاً طالما أغضت عليها البكريون حفظاً للعهد، ومرعاة للقربى وصلة الرحم، كما أن إصرارهم على الخلاف لن يؤدي بهم إلا إلى الهزائم لقوة جانب البكريين ومنعتهم.

ونجاعة هذه الحجة في هذه الأبيات تأتي من جهة أن الحارث استطاع أن يخلق المنافذ على بني تغلب عاداً الاستمرار في هذا الادعاء في غير صالح التغلبيين في جميع حالاته ومآلاته.

سادساً: لوحة الحجاج التاريخي:

(1) الأملاء: الملأ من القوم كبارهم وخيارهم.
(2) نيشتم: أثرت، وملحة: مكان، والصاقب: جبل، ومعناه: إن أثرت ذلك ظهر فضلنا عليكم، وادعائكم علينا بالباطل.
(3) نقشتم: استقصيتم، تجشمه: تكلفه.
(4) الأقداء: ما يسقط في العين، وهو مؤذ.

ام علينا جَزَى العِبَادِ كما نيب
 ام علينا جَزَى قَضَاعَةَ ام ليب
 ليسَ مِنَا الْمُضَرَّبُونَ وَلَا قِيـ
 ام علينا جَزَى إِيدِا كما قيب
 عَنَّا باطلا وظلماً كما تُع
 وثمانونَ مَنْ تَمِيمٍ بِأيدِيـ
 لم يُخَلُّوا بَنِي رِزَاحٍ بِرِيقَا
 تَزَكُوهُم مَلْحَبِيْنَ فابوا
 وَتَوَهُم يَسْتَرْجِعُونَ فلم تَز
 تَم فاعُوا مِنْهُم بِقَاصِمَةِ الـ
 مَّ خَيْلٍ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ مَعَ العَلَّاقِ لَا رَافَةَ وَلَا إِيقَاءَ(12)
 لَ، عَلَيْهِ إِذَا تَوَلَّى العَفَاءَ(13)
 جَزُ هَلْ نَحْنُ لَابِنِ هِنْدِ
 نَ فاندِي (14) فاندِي
 مَلَّحٍ حَيٍّ كَانَهُم العَفَاءَ(16)
 فهداهم بالأسوديين وأمر الله بلع يشقى به الأشقياء(17)
 إذ تَمَوَّنَهُم غُرُورًا فساقط
 لم يَعرُوكم غُرُورًا وَلَكن

هي مناقضة لمنطق العدل الذي يتصف به الملك، وللمقتضى منطق التعديل الذي يقوم عليه اعتزاز الشاعر بشهادته.

ومن جهة أخرى فقد استعمل الحارث حجة تكميلية أخرى، وهي حجة المثال، وهي من حجج تأسيس الواقع، فيتأسس - كما تذكر سامية الدريدي- "على ظاهرة مفردة، يتم توسيعها، بحيث تصبح حالة عامة، لا مجرد حالة خاصة تم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها" (الدريدي، سامية، 2011، 243).

لقد اتخذ الشاعر من الحالة الخاصة للمنذر بن ماء السماء نموذجاً لتثبيت رأيه وتدعيمه، ولتوجيه المتلقي إلى تبرئة جانب قومه، فالحارث يعرف تاريخ المنذر بن ماء السماء في الوقوف مع قبيلته، وفي الإيقاع ببني تغلب في موطن، ويحاول أن يقدمه نموذجاً للموقف الذي يحاول جر عمرو بن هند إليه، فيوظفه في سبيل توجيهه إلى سلوك معين، وتحريضه على استلهاً موقف محدد مناسب للمقام الذي يعيشه الشاعر.

وقد اختار الحارث هنا نموذجاً الذي يجب احتداؤه بعناية فائقة، إذ لا يمكن أن يرتضي عمرو بن هند -وهو الملك- نموذجاً من عامة الناس، أو من ملوك آخرين؛ ولذا فقد جعل الحارث نموذجاً من آباء عمرو بن هند نفسه، فتحقق له بذلك رضا المتلقي عن النموذج، وهيبة النموذج التي يطالب بها النقاد(1).

وجانب آخر نلمحه هنا، وهو أن انصراف الشاعر إلى نموذج من آباء عمرو بن هند يتصل بحجة أخرى يسميها النقاد صلة الشخص بأعماله، "وتتمثل في تفسير حدث أو موقف ما أو التنبؤ به انطلاقاً من الذات التي يعبر عنها أو يجليها أو يوضحها" (الدريدي، سامية، 2011، 228)، فالحارث يحاول أن يستغل انتساب عمرو إلى أبيه المنذر، ليصنع نسفاً يتصل بموقف هذه العائلة من خلال أعمالها السابقة، وبذلك فهو يتخذ من أشخاص هذه العائلة نسفاً واحداً تُفسر به هذه الأعمال أو يُنتبأ بها، وغير خاف أن الملوك عادة يأفون من الخروج عن سنن آبائهم وعن صورتهم التي شاعت بين الناس وصنعت لهم الهيبة، وبذلك فإن الإيحاء المبطن هنا يعمل على توجيه سلوك المتلقي وقيادته إلى الموقف الذي يريده الشاعر.

سابعاً: لوحة الحجاج العقلي:

شكل الاجترار التاريخي في المقطع السابق حجر الزاوية في بناء صورة أولية للحجاج وفي توجيه المتلقي ومحاولة إقناعه والتأثير عليه، ومن الطبيعي أن يفضي إلى الواقع الراهن وإلى الحجج العقلية والمنطقية، يقول: فأتزكروا البغي والتعدي وإما تتعاشوا في التعاشي الذاء(2)

وَإتَزَكُرُوا جَلْفَ ذِي المَجَزِ وَمَا
 جَزَرَ الخُونِ وَالتَّعَدِي وَهَلْ
 وَأَعْلَمُوا اتَنَا وَإِيَّاكُمْ فِيـ
 اعْلِينَا جُنَاحُ كِنْدَةَ ان يَغ
 ام علينا جَزَى حَنيفَةَ أو ما
 ام جناليا بَنِي عَتِيقٍ فَمَنْ يَغ
 قَضُ ما فِي المَهَارِقِ
 ما أَشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا
 تَمَّ غَازِيَهُمْ وَمِنَا الجَزَاءُ
 جَمَعَتِ مِنْ مَحَارِبِ
 جَر فِينَا مِنْ حَرِيْبِهِم بُرَاءُ

- (5) نيط: علق، وجوز المحمل: وسط البعير، والأعباء: النقل.
 (6) طسم: قبيلة من العرب، وكان طسم وجديس أخوان، فكسرت جديس على الملك خراجها، فأخذت طسم بذنب جديس، والأبواء: الذي أبق دفع الخراج.
 (7) الععنن: الاعتراض، وتعتر: تذبح، وحجرة الربيض: حظيرة الغنم، وكان الرجل من العرب ينذر إذا بلغت شياهاه مئة أن يذبح عشرة منها شاة، وذلك في رجب، فكان البخيل منهم إذا دخل رجب وبخل بغنمه صاد الأطباء وذبحها عن غنمه.
 (8) بنو رزاح: قوم من تغلب، ونطاح: أرض قريبة من اليمن، وكان عمرو من بين سعد بن زيد مناة خرج في ثمانين من بني تميم، فغزوا بني رزاح فقتلوا منهم، وأخذوا أموالهم.
 (9) ملحبين: مقطعين بالسيوف، والنهاب: ما ينهب من الأموال ونحوه.
 (10) الشامة: الناقة السوداء، والزهران: الناقة البيضاء.
 (11) الغليل: الحرارة تكون في الصدر.
 (12) الغلاق: رجل من بني يربوع بن حنظلة من تميم، كان على هجانن النعمان بن المنذر الأكبر أغار على بني تغلب وقتل فيهم.
 (13) المظلون: من أبطل دمه.
 (14) المنذر: هو المنذر بن ماء السماء، قتله قوم من بني غسان في غزوة له، فاحازرت فنة من بني تغلب عنه، فلما ولي عمرو بن هند، بعث إليهم ليرجعوا إلى طاعته، فأبوا، وقالوا: "هل نحن لابن هند رعاء"، فسبر عمرو أخاه النعمان بجيش إلى غسان، يطلب دم أبيه، وجعل أول غزوته على الذي خالفه من تغلب، فقتل منهم، ثم سار على غسان فقتل ملكها، وأخذ ابنته ميسون.
 (15) العلاة والعوصاء: العلاة أرض أنزل بها عمرو بن هند ميسون الغسانية بعد أن قتل أباهما أولاً، ثم أنزلها العوصاء.
 (16) تأوت: اجتمعت، والفراضبة: الصعاليك، والألقاء: الشيء يلقي فلا يؤبه به.
 (17) الأسودان: التمر والماء، والمعنى أنه غزا بهم على ملء بطونهم.

(1) حول هيبة النموذج انظر: (الدريدي، سامية، 2011، 245).

(2) التعاشي: التعامي.

(3) المهارق: الصحف.

(4) جَزَى: ذنوب، والغبراء: الصعاليك الفقراء، والأرض.

ولا يقتصر الأمر على هذه العلاقة فقد ضمن الحارث هذه المقطع علاقات أخرى، لعل من أبرزها علاقة التناقض التي يتضمنها تحميل بني بكر جنابيات القبائل الأخرى، إذ يقرر أن هذا الحكم مناقض للعدل القائم على تحميل كل قبيلة وزر أعمالها، والحارث يريد هنا أن يقرر أن مطالبة بني تغلب بدية نفر قضاوا عطشي لا معنى لها، وأن مطالبة الثار هنا يجب أن تكون في أولئك الذي قضاوا في المواجهات الحربية التي خاضها التغلبيون، وأن مطالبتهم بني بكر بالديات إنما هي أثر من أثر الأحداث التي قابلوها وعانوها مع هذه القبائل.

وهذا اللون من التعارض يسميه بيرلمان الهزء، ويعني إمطة اللثام عن تعارض أطروحات الخصم مع الرأي السائد بصورة تدعو للهزء والسخرية (صولة، عبدالله، 1998، 326-327)، ولا يخفى ما في تحميل بني بكر جنابيات القبائل الأخرى التي أوقعت ببني تغلب وتعدادها واحدة بعد واحدة من الهزء والسخرية، وما تضمنته بعض الأبيات من السخرية المباشرة كقوله: (فلم ترجع لهم شامة ولا زهراء/ ما أصابوا من تغليي فطول...)، والحجة في هذا اللون من الحجاج تستمد قوتها من قيامها على غرار البناء المنطقي مع تفسيرها في صورة حصول تعارض مع الرأي السائد بدون مسوغ (الريدي، سامية، 2011، 270 وما بعدها).

لقد استعمل الحارث هذا لوناً من ألوان التناقض بين هذا الادعاء والقيم الثابتة التي يؤمن بها الجميع وترجع إليها المخاصمات في الأبيات السابقة للتأكيد على أن هذا الطرح لا يتفق مع هذه القيمة الخارجية إن جاز التعبير، لكنه لم يغفل عن تأكيد مبدأ التناقض في الدعوى نفسها - أيضاً حين أشار إلى تحميلهم هذه الجنابيات مع عدم مشاركتهم في الغنائم في قوله:

اعلينا جناح كندة ان يغ غازيهُم وَمنا الجزاء

فالحارث هنا يتجه إلى ذكر التناقض في الدعوى نفسها، التناقض بين تحميلهم هذه الجنابيات وعدم مشاركتهم في الغنائم، أو كما يعبر ابن الأنباري في شرح هذا البيت: "أتغنم كندة فيكم، ويكون جناح ما صنعوا علينا" (ابن الأنباري، 2010، 479)، والتناقض الذي يحمله الادعاء نفسه أقوى حجة وأوسع أثراً في إسقاط أي ادعاء؛ لأن التناقض في جزء من الدعوى يسقط الدعوى كاملة، ولأن التناقض في جزء من الادعاء ذاته يحمل إقراراً من صاحب الادعاء بعدم صدق دعواه، وهو ما حاول الحارث أن يقرره في هذا البيت؛ ليؤكد أن هذه الدعوى تحمل التناقض في ذاتها؛ لأنه من البدهي أن يتحمل صاحب أي عمل أو جنابية أثر عمله وجنابيته، لا أن يتحمل غرمها دون غنمها.

وعلى نحو ما حملت الأبيات حججاً تحمل البني المنطقية حملت كذلك حججاً تعتمد العلاقات الرياضية، ومن أبرزها حجة التعديّة (2)، ففي حديثه عن غزو المنذر الأكبر ثم عمرو بن هند لبعض بني تغلب نلمح تعديّة هذا الحكم، فكانه يقول: أعداء الأمس أعداء اليوم، وأصدقاء الأمس أصدقاء اليوم، وهذه التعديّة كما لا يخفى تاريخية أو زمنية، تحاول أن تنشئ علاقات تاريخية للوصول إلى تعديّة الحكم الذي يريده الشاعر. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه يحاول استغلال علاقة عمرو بن هند بالمنذر في تعديّة الحكم ذاته، فما دام بنو يشكر أصدقاء للمنذر، والمنذر أبٌ لعمرو بن هند فإن بني يشكر أصدقاء لعمرو بن هند تبعاً لذلك، وما دام

هذا المقطع أطول المقاطع، وأكثرها تنوعاً في استعمال العلاقات الحجاجية المختلفة.

يبدأ المقطع بمطالبة بني تغلب بترك البيغ والتعاشي والالتزام بالعهود والمواثيق، وتجنب الأهواء التي تناقض ما كتب في المهارق، والحجة المبدئية التي ينطلق منها الحارث في هذا المقطع هي حجة التناقض، فهو يشير بشكل مباشر إلى أن ادعاء التغلبيين مناقض للعدل والإنصاف، وتعهد لسلوك طريق الظلم، واتباع للأهواء، وتعدي على حلف ذي المجاز، وما قدم فيه من العهود، وما كتب في المهارق وشهدت به الكفلاء، وبالتالي فإن مطالبتهم تناقض العهود التي يعتمدون عليها، وهو ما فسره بالأهواء وبالطيخ والتعاشي.

والشاعر هنا يقابل بين ثنائيتين، تتضمن الأولى دعوى بني تغلب القائمة على الأهواء والتعاشي والخيانة والتعدي والبيغ، وتتضمن الأخرى العهود والكفلاء وما في المهارق من التساوي في الشروط والتبعات.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى حججه الأخرى، فيستعمل ما يسميه بعض النقاد بالأسئلة المعلقة، وهي -كما يذكر عبد الهادي الشهري- "من أهم الأدوات اللغوية الإستراتيجية التوجيهية" (الشهري، عبد الهادي، 2004، 352)، فيحاول من خلال هذه الإستراتيجية توسيع دائرة القضية برسم صورة كاملة للجنابيات التي أخذت بها تغلب من قبل القبائل العربية الأخرى، والنكبات التي مُنيت بها على أيدي القبائل العربية المختلفة.

وهذه الإستراتيجية التي لجأ إليها الحارث تتضمن ألواناً من تقنيات الحجج المنطقية والواقعية والمؤسسية للواقع، فمن جهة الحجج المنطقية فإننا نرى الحارث يقيم علاقة تبادلية بين هذه الأحداث وبين ادعاء التغلبيين، والعلاقة التبادلية تتمثل "في معالجة وضعيتين إحداها بسبيل من الأخرى معالجة واحدة، وهو ما يعني أن تينك الوضعيتين متماثلتين وإن بطريقة غير مباشرة" (صولة، عبدالله، 1998، 328).

لقد جعل الحارث بن حلزة نكبة التغلبيين التي تقوم عليها المحاججة أمام عمرو بن هند كالنكبات التي منوا بها من قبل بقية القبائل العربية؛ ليضعها إزاء نكبتهم الحاضرة بوصفها صنفاً واحداً يجب التعامل معه بكيفية واحدة، فسأوى بين حالتين ووضعيتين مختلفتين محاولاً أن يقرر الحكم نفسه فيهما، فكما أن النكبات السابقة التي نكب بها التغلبيون لم تنكشف عن الأخذ بثأر من قتل منهم فكذلك في هذه الحالة، إذ يتضمن ذلك علة ما تدل عليها الحالات السابقة، إما لعدم استحقاقهم الثأر، أو لضعفهم عن حماية أنفسهم في مجتمع يقدّر القوة ويحترمها، أو نحو ذلك.

وتأتي هذه الحجة في صورة أخرى عند وصف النكبات التي أوقعها بهم النعمان بن المنذر الأكبر بقيادة الغلاق، وعمرو بن هند من بعده بمشاركة البكريين، محاولاً أن يضعهما بوضعيتين متماثلتين، فيقرر الحكم ذاته على الحالة الراهنة، ولكن هذه الحالة لا يمكن الركون إليها إلا بتناسي التظابق التام بين الحالتين؛ لأن إيقاع المنذر وعمرو بن هند ببعضهم كان إيقاعاً للسلطة القاهرة ببعض أفرادها، ولا يمكن أن يتأتى هذا الحكم للأفراد داخل هذه السلطة، كما أن عمرو بن هند لم يكن مرتبطاً معهم بعهد معين تجاه تحميل الديات وتبعات القتلى.

(1) الأل: ما يخيل للإنسان أنه يراه في الصحراء إذا ارتفع النهار، والضحاء: ارتفاع النهار.

(2) حول حجة التعديّة انظر: (الريدي، سامية، 2011، 203).

الجرجاني- في شأنه أسلوب يعمد إلى الإفحام والدحض ورد الدعوى، يقول: "واعلم أنا وإن كنا نُفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل، ويرتدع، ويعيا بالجواب" (الجرجاني، عبد القاهر، 1989، 119).

والطاقة الحجاجية لهذا الموقف تعتمد على اتفاق أطراف الموقف التواصلي بأن هذا الموقف المذكور والمستهجن -وأعني به تحميل أحد أطراف النزاع جنابة لم يرتكبها- منافٍ لأي قيمة منطقية أو حجاجية.

ثامنًا- لوحة الحجاج التواصلي والعاطفي:

ثم تنتقل القصيدة بعد ذلك لي طرح الحارث آخر حججه في المقطع الأخير، فيقول:

أَيُّهَا الشَّائِي الْمُبْلَغُ عَنَّا
بِنْدِ عَمْرٍو، وَهَلْ لِيذَاكَ
مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَكَمَلٌ مِّنْ يَمِّ
شَيْءٍ، وَمَنْ نُونٌ مَا لِيهِ
إِرْمِي بِمِثْلِهِ جَالَتِ الْجِنُّ فَابْتِ
لِخَصْمِهَا الْأَجْلَاءِ(5)
مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا
بِتْ ثَلَاثَ فِي كَلْبَيْنِ
أَيَّةُ شَارِقِ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا
عَوًّا جَمِيعَا لِكَلِّ حَيِّ
لِأَيِّ(6) قَرِظِي كَأَنَّهُ عِبْلَاءُ(7)
وَصَنِّبْتِ مِنَ الْعَوَاتِكِ مَا تَتَّ
هَاءُ إِلَّا مُبْيَضَّةَ رَعْلَاءُ(8)
فَجَبَّهَانَهُمْ يَضْرِبُ كَمَا يَخُ
رُجٌ مِنْ خَرِبَةِ الْمَزَادِ
وَحَمَلْنَاَهُمْ عَلَى حَزْمِ ثَهْلَا
نِ شِلَالَا(9) وَدَمِّي
وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ وَمَا
إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ(11)
ثُمَّ خَجْرَا عَنِّي ابْنُ أَمِّ
وَلَهُ فَارِسِيَّةَ خَضْرَاءُ(12)
أَسَدٌ فِي اللَّقَاءِ وَرَدٌّ
وَرَبِيعٌ إِنْ شَنَعْتَ
وَفَكَكْنَا عَلَى أَمْرِي الْقَيْسِ عَنَّهُ
بَعْدَ مَا طَالَ حَيْبُهُ وَالْعَاءُ(13)
(3) الشائِي: الميغض.
(4) المقسط: العادل.
(5) إرمي: ذو ملك قديم، جالت: كاشفت، الأجلاء: الأمور المنكشفة.
(6) الشارق: صاحب المشرق، والشقيقة: بنو الشقيقة من بني شيبان، أغاروا على أبل لعمر بن هند، فردتهم بنو يشكر، وقتلوا فيهم.
(7) مستلمين: لبسوا الدروع، قرظي: منسوب إلى اليمين، عبلاء: هضبة بيضاء.
(8) الصنيت: الجماعة، والعواتك: نساء من كندة من الملوك، ومبيضة رعلاء: ضربة موضحة عن بياض العظم.
(9) خربة المزاد: عروة القرية (ابن منظور، خرب).
(10) حزم تهلان: ما غلظ من هذا الجبل، وشلالا: هرابا، والأنساء: جمع النساء، وهو عرق يأخذ من منشق ما بين الفخذين، فيستمر في الرجلين (الخليل بن أحمد، نسي).
(11) الحائنون: المتعرضون للحين، وهو الهلاك (ابن دريد، حني).
(12) حجر: حجر الكندي غزا امرأ القيس بن المنذر بن ماء السماء ف يجمع من كندة، فردته بنو بكر بن وائل، وقتلت جنوده، وفارسية خضراء: كتيبة سلاحا من فارس خضراء من كثرة السلاح.
(13) الورد: الأسد، والهوس: المختال الذي يخفي وطأه حتى يأخذ فريسته.

أن بني تغلب أعداء للمنذر، فإنهم والحالة هذه أعداء لعمر بن هند، ويمكن صياغة هذه الحجة من خلال المعادلة الرياضية التالية:

(أ- عمرو بن هند × ب- المنذر الأكبر)
(ب- المنذر الأكبر × ج- بنو بكر وبنو تغلب)
إذن = (أ- عمرو بن هند × ج- بنو تغلب)

فما دام أن عمرو بن هند على علاقة صفاء وبنوة بالمنذر الأكبر، والمنذر الأكبر عدو لبني تغلب، فقد حاربهم وأوقع بهم، وحليف لبني يشكر، فقد ساروا في جيشه وناصروه، فإن عمرو بن هند حليف لبني يشكر وعدو لبني تغلب.

وبالإضافة إلى ذلك فقد استعمل الحارث في هذه اللوحة حججاً مؤسّسة لبنية الواقع، فاستعمل التمثيل والاستدلال، واستطاع أن يرسم هذه الصورة المعبرة عن تحميلهم جريرة غيرهم:

أَمْ عَلَيْنَا جَزَى إِيَادٍ، كَمَا قَبِ
لَ لِيُطِمْ: أَخُو كَمِ الْآبَاءِ(1)
عَنَّا بِاطِلَا وَظَلْمًا كَمَا تَعُو
عَنْ عِنْدِ حَجْرَةَ الْوَيْبِضِ

فهو هنا يلجأ إلى الاحتجاج بالتمثيل، ويقدم غايه الخطاب الحجاجي وما يريد الاستدلال عليه من خلال تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد حقيقة معينة أو إثباتها عن طريق تشابه في العلاقات، فيستدل لسلامة موقف قبيلته وأن بني تغلب إنما تحاول أن تأخذهم بجريرة غيرهم بعلاقة الشبهة التي تربطها بأمر آخر، وهو هنا أخذ طسم بذنب أخبهم، وذبح الطباء مكان الغنم في بعض ندور الجاهلية، وهذا ما يسميه بيرلمان بالاستدلال بواسطة التمثيل، إذ يعد التمثيل هنا أداة برهنة، قائمة على تماثل بين بني متشابهة من مجالات مختلفة (صولة، عبدالله، 1998، 339)، ويمكن تمثيل هذا التشابه على الصورة التالية:

أ- بنو بكر
↓
ج- طسم/الطباء
← ب- الجناة
↓
و- الأباء/حجرة
الريبيض

والتشابه هنا يأتي في العلاقة، فعلاقة بني بكر بمقتل هؤلاء ومحاوله تحميلهم مسؤولية مقتلهم تشبه علاقة طسم بأخيه الآباء، وعلاقة الطباء بجماعة الغنم التي استحققت الذبح لأجل النذر.

واستعمال البيان هنا بجانب الحجة يمكنها -كما يذكر طه عبد الرحمن- " من اكتساب مرونة يدعو إليها التكيف المستمر مع تقلبات النص، ومن اكتساب خصوصية يستدعيها التلازم المفيد مع تجدد مقتضيات الكلام" (عبد الرحمن، طه، 1998، 267).

وبلغت النظر استعمال الحارث لأسلوب الاستفهام، وهو أسلوب إنشائي كما يقرره البلاغيون القدماء، وقد استعمله الحارث هنا في غير معناه الحقيقي، إذ خرج به إلى الإنكار، عامداً إلى تحويل الموقف المقابل في المقام التواصلي واستمالته، أو هو -كما يقرر عبد القاهر

(1) طسم: من قبائل العرب، الآباء: الذي أبي دفع الخراج، وكانت طسم وجديس أخوين، فكسرت جديس على الملك خراجها، فأخذت طسم بذنب جديس (ابن الأثير، 2010، 483).

(2) عننا: اعتراضاً، تعتر: تذبح عتيرة، والعتيرة: ذبيحة كانوا يذبحونها في رجب لأهلهم، الحجرة: الحظيرة تتخذ للغنم، الريبيض: جماعة الغنم، وكان من شأنهم أن الرجل ينذر إن بلغت شأوه مئة أن يذبح من كل عشرة منها واحدة للالهة، وذلك في رجب، فكان بعضهم إذا دخل عليه رجب وبخل أن يذبح من غنمه صاد من الطباء وذبحها عن غنمه ليفي نذره (ابن الأثير، 2010، 483).

وبالتالي فإن هذه الآيات والدلائل تقتضي أن يحكم عمرو بن هند لهم، وألا يلتفت إلى ادعاء بني تغلب. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحوادث تتضمن حجة رياضية أخرى، وهي حجة تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له من جهة دلالتها على إخلاصهم للملك؛ لأنها تتخذ من حكم ينطبق على هذه الحوادث الجزئية حكماً عاماً ينطبق على الكل، ويبدو هذا الحكم منطقياً لصبغته الرياضية الواضحة، ولكن التأمل لا يدل على ذلك، إذ يكفي المعترض أن يستدل بوجود حالات أخرى لا تدل على هذا الحكم، ليحدث شرخاً في الصبغة الرياضية لهذه الحجة.

ووجود هذا الشرخ في الصبغة الرياضية هو الذي يعطي الحجاج صبغته الإنسانية والفلسفية، فكل نقاش متعلق بمسألة العدل إذا لم يكن قابلاً للاختزال في حلٍ ملزم منطقياً، فهو يدور حول صراع مصالح وقيم يجري التفكير فيها داخل إطار من النقاش المتناقض، بحيث قد يقتضي القرار في بعض الحالات اختياراً بين القيم التي تنقلها الحجج المتعارضة (المودن، حسن، 2016، 20-21).

ومما تضمنته هذه الآيات كذلك حجة الغائية وتحديداً حجة الاتجاه؛ ويعني رفض أمر ما لأنه سيكون الوسيلة التي تقودنا إلى غاية لا نريدها، أو إلى نتيجة نتجنبها ونخشى حدوثها (الدريدي، سامية، 2011، 225)، فالحارث عندما يذكر تحالف بني يشكر وعمرو بن هند إنما يقرر ضرورة استمرار هذا التحالف؛ لأن خسارته تعني خسارة عمرو بن هند لحليف مهم طالما أزره في الحروب، ولأن الحكم على بني يشكر سيؤدي إلى غاية يفترض أن عمرو بن هند لا يريدها، وهي خسارة هذا الحليف الصادق، وبالتالي فالحكم على بني يشكر يؤدي إلى غاية لا يريدها عمرو بن هند. ومن الحجج التي تلمح هنا علاقة الذات بصفاتهما، حيث تتضمن الآيات إثبات صفة الوفاء ليكر بالاستدلال بماضيهم، وتسعى إلى تثبيت العلاقة بين القبيلة وأعمالها.

الخاتمة:

هدفت هذه الدراسة إلى مكاشفة الموقف الحجاجي للحارث بن حلزة في معلقته المشهورة، محاولة أن نفيد من الدراسات التي أطرت لهذا المجال، ومن هنا كان اختيار المدرسة التقنية.

وقد كشفت هذه الدراسة تعدد محاور الحجاج وتقنياته التي استعملها الحارث في إطار استمالاته عمرو بن هند إلى رأيه ورأي قومه، فأظهرت تعدد أنواع هذه الحجج التي مارسها الحارث وتتنوع مساربها بما يكشف قدرته على الحجاج، والإمسك بأساليب الإقناع، والسيطرة على معاهد الجدل.

وبالنظر في المعلقة فقد انعقدت محاور الحجاج فيها حول إثبات عدم منطقيّة دعوى بني تغلب وسقوطها عقلاً وواقعاً، وخطورة تحميل بني يشكر مسؤولية هؤلاء القتلى من طرف حفي، كما تضمنت الاستمالة العاطفية لعمرو بن هند من خلال إثبات ولاء بني يشكر له.

لقد لحظت الدراسة تنوع تقنيات الحجاج وتداخلها، إذ وجدت أن الحارث استعمل نحواً من خمسة عشر حجة جاءت موزعة على الحجج شبه المنطقية والحجج المؤسسة على الواقع والمؤسّسة له، ولم تهمل حجج القيم وحجج المشترك.

ويبرز في طليعة هذه الحجج شبه المنطقية القائمة على إثبات تعارض دعوى الخصم مع العدل والإنصاف

وَاقْدَانَاهُ رَبِّ غَسَّانَ
فَقَدْ بِنَاهُمْ بِتِسْعَةِ أَمَلَا
بِرْ كَرَّهَا إِذْ لَا تَكَلَّ
لِي تَدَامِي أَسْلَابُهُمْ إِغْلَاةً (3)
وَمَعَ الْجَوْنِ جَوْنِ آلِ بَنِي الْأَوْ
سِ عَنُودٌ كَأَنَّهَا دَفَؤَاءُ (4)
مَا جَزَعْنَا نَحْتِ الْعَجَاجَةِ إِذْ وُلَّتْ بِأَقْفَانِهَا وَحَرَّ
الْمَاءِ (5)
وَوَلَدْنَا عَمْرُو بْنَ أَمِّ أَنَسِ
مِنْ قَرِيبٍ لَمَّا آتَانَا
مِثْلَهَا تَخْرُجُ النَّصِيحَةُ
مِ قَلَاةٍ (6)
مِنْ دُونِهَا
أَمَّا (7)

تبدأ الآيات بذكر إقساط الملك وإنصافه، ثم تعرض حججاً ثلاثاً كما وصفها الحارث.

وهذه الحجج تقوم على استمالة عمرو بن هند من جهة تواصلية، فيتضح فيها جانب الاستمالة العاطفية، فهي تبدأ بالثناء على عمرو بن هند وعلى إقساطه، وعلى تذكر علاقة القبيلة الصافية به وإخلاصهم له في مواقف سابقة، وتحتج لنصحهم له بقرابتهم له، وأنهم أحوال أبيه.

وبنية هذه الحجج بعمامة تقوم على التعدية، وهي حجة - كما ذكرت من قبل - قائمة على تعدية حكم معين إلى حكم آخر، وتعود إليها أصناف كثيرة من الحجج، تجدها بطريقة خفية وبأشكال مختلفة، إما لعلاقة التساوي أو التفوق أو التضمن أو الاشتمال أو نحو ذلك (الدريدي، سامية، 2011، 204).

لقد جعل الشاعر من حججه أن يعدد هذه المواقف التي أخلص بها بنو بكر لعمرو بن هند ونصروه، ففي يوم الشقيقة ردت بنو يشكر بني الشقيقة عن إبل عمرو بن هند، ويمكن صياغة هذه الحجة على النحو التالي:

-يوم الشقيقة يدل على إخلاصهم ونصرتهم للملك في أهلك الظروف وأشدها.

-إخلاصهم ونصرتهم للملك تقتضي مكافأتهم ونصرتهم.

-إذن يوم الشقيقة وما بذلوه فيه يقتضي نصرتهم والحكم لهم ضد بني تغلب.

والتعدية تأتي من نقل الحكم المرتبط بيوم الشقيقة وتعديته إلى الموقف الحاضر.

والحجج التي أوردها الحارث بعد ذلك كلها تجري على هذا النسق، فمشاركتهم إياه في الحروب ودفاعهم عنه وقرابتهم منه كلها تدل على نصحهم للملك وقربهم منه وأنهم أجود الناس منه منزلة ومكاناً، وهذه المكانة تقتضي مكافأتهم ونصرتهم في هذا الموطن والحكم لهم،

(1) امرؤ القيس: ابن النعمان بن منذر، أسرته غسان وقتلت أباه، ثم قتل عمرو بن هند ملك غسان بأبيه واستنفذ أخاه ومعه بنو بكر بن وائل.

(2) لاتكال الدماء: لا تحسب لكثرتها.

(3) تسعة أملاك: أبناء حجر أكل المرار بعد قتله، وقد كانوا رجعوا لليمن بعد مقتل أبيهم، فلحقهم بكر، وظفرت بهم قبل اليمن، وأتوا بهم النعمان بن المنذر في الحيرة، فأمر بقتلهم فقتلوا.

(4) الجون: من ملوك كندة، وكان جاء في كتيبة ليمنع بني حجر، فهزمته بنو بكر بن وائل، وأخذوا ابنه، وأتوا به المنذر بن ماء السماء، والعمود: الكتيبة المحكمة، والدفء: المنعطفة على من فيها.

(5) الصلاء: شدة الإصطلاء بالنار.

(6) الحباء: المهز، أراد أنها خطبها خطبة، ولم يأسرها.

(7) الفلاة: الصحراء، والجمع الأفلاء، وأراد أن نصيحتهم له واسعة كالفلاة التي دونها أفلاء كثيرة.

الدريدي، سامية. "الحجاج في هاشميات الكميته". *حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد (40)*، (1996م).
الريفي، هشام. "الحجاج عند أرسطو". *مجلة خاص بعنوان أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية- تونس، كلية الآداب -منوبة، سلسلة آداب، مجلد39، (1998م).*
الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد. *شرح المعلمات السبع*. تحقيق: لجنة التحقيق بالدار العالمية. بيروت: الدار العالمية، 1993م.
سرحان، هيثم. "الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد". *مجلة جامعة أم القرى، العدد (11)*، (1435هـ).

السعيد، عبد الله بن سليمان. "الأسطورة الشخصية في شعر طرفة بن العبد قراءة تحليلية في ضوء النقد النفسي". *مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (42)*، (1438هـ).

الشعبان، علي. *الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل*. الطبعة الأولى. نغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010م.
الشهري، عبد الهادي. *استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية*. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، دت.

صولة، عبد الله. "الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان". *مجلة خاص بعنوان أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم*. تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية- تونس، كلية الآداب -منوبة، سلسلة آداب، مجلد39، (1998م).

صولة، عبد الله. *الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية*. الطبعة الثانية. تونس: منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة تونس، ودار المعرفة، بيروت: دار الفارابي، 2007م.

صولة، عبد الله. *في نظرية الحجاج: دراسة وتطبيقات*. الطبعة الأولى. تونس: مسكلياني للنشر والتوزيع، 2011م.

عبد الرحمن، طه. *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*. الطبعة الأولى. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998م.

العتيبي، ديب مقعد. *الخطاب الحجاجي في كتابات محمد عبد الله دراز*. رسالة دكتوراه، السعودية، قسم اللغة العربية وأدائها، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، 1437هـ/2016م.

العزاوي، أبو بكر. *الخطاب والحجاج*. الطبعة الأولى. المغرب: الأحمدي للنشر والتوزيع، 2007م.

عليحات، يوسف. "بلاغة الحجاج في النص الشعري دالية الراعي النميري أنموذجاً". *مجلة جامعة دمشق، مجلد 29، العدد (1، 2)*، (2013م).

فضل، صلاح. *بلاغة الخطاب وعلم النص*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- سلسلة عالم المعرفة، العدد 164، أغسطس، 1992.

القرطاجني، حازم. *منهاج البلاغة وسراج الأدياء*. تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة. الطبعة الثانية. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981م.

في مواطن، وإثبات التناقض في دعواه في مواطن أخرى، وهذه الحجج كما يرى النقاد أقوى الحجج تأثيراً وأثراً بما يؤكد قدرة الحارث على إدارة الحجاج وعلى استمالة المتلقي إلى رأيه.
كما لحظت الدراسة أن الحجة الواحدة كان تحمل في طياتها تقنية أو أكثر من تقنيات الحجاج بما يكشف تمكن الحارث من الحجاج، ويفسر إعجاب عمرو بن هند والنقاد من بعده بالقصيدة، ووضعها في صف القصائد المفردة مع عدم اعتمادها على الصور الفنية غالباً.
وبالجملة فقد أظهر الحارث كفاءة عالية في استعمال تقنيات الحجاج وتوظيفها في هذه المعلقة لاستمالة الرأي المقابل وتحقيق التأثير المراد في هذه الموقف التواصلية.

المراجع العربية:

ابن أبي سلمى، زهير. *شرح شعر زهير بن أبي سلمى صنعة العباس ثعلب*. تحقيق: د. فخر الدين قباوة. الطبعة الأولى. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1402هـ/1982م.

ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم. *شرح القصائد السبع الطوال، حققه الشربيني شريدة، القاهرة، دار الحديث، 1431هـ/2010م.*

ابن العبد، طرفة. *ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلام الشنتمري، ويليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة*. تحقيق: درية الخطيب ولفي الصقال. الطبعة الثانية. بيروت-البحرين: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دائرة الثقافة والفنون بالبحرين، 2000م.

ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم. *عيون الأخبار*. تحقيق: مفيد فميحة. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م.

أبو العباس ثعلب، أحمد بن يحيى. *شرح شعر زهير بن أبي سلمى*. تحقيق: د. فخر الدين قباوة. الطبعة الأولى. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1402هـ/1982م.

أعراب، حبيب. "الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري". *مجلة عالم الفكر*. الكويت، المجلد 30، العدد (1)، (يوليو-سبتمبر 2001م).

التويرجي، صالح. "الحجاج في كافوريات المتنبي مقاربة تحليلية في أنساق الحجج". *مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (45)*، (شوال 1438هـ).

الجرجاني، عبد القاهر. *دلائل الإعجاز*. قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود شاكر. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1410هـ/1989م.

حمداوي، جميل. *من الحجاج إلى البلاغة الجديدة*. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2014م.

الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي. *شرح القصائد العشر*. تحقيق: فخر الدين قباوة. الطبعة الرابعة. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1400هـ/1980م.

الدريدي، سامية. *الحجاج في الشعر العربي بنيتيه وأساليبه*. الطبعة الثانية. إربد: عالم الكتب الحديث، 1432هـ/2011م.

الدريدي، سامية. *دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب القديم*. الطبعة الأولى. الأردن: عالم الكتب الحديث، 1430هـ/2009م.

كرم الدين، عبد الرحمن أحمد. "لامية العرب بين التواصل والقطيعة مقارنة حجاجية". مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. العدد (28)، (رجب، 1434هـ).

الكندي، امرؤ القيس. ديوان امرؤ القيس. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الخامسة. مصر: دار المعارف، د.ت.

مدقن، هاجر. الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه. الطبعة الأولى. الجزائر: منشورات الاختلاف، 2013م.

مكلي، شامة. الحجاج في شعر النقائض دراسة تداولية. رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة مولودي معمري، تيزي وزو، 2009م.

مكلي، شامة. الحجاج في شعر النقائض دراسة لنصين لجرير والفرزدق. الطبعة الأولى. الجزائر: دار ميم للنشر، 2010م.

المودن، حسن. "في درس الحجاج من البلاغة الجديدة إلى الحجاج داخل الخطاب". مصنف مشترك بعنوان بلاغة الحجاج وتحليل الخطاب، المغرب: جامعة القاضي عياض- كلية اللغة العربية بمراكش، (2016م).

